العربية: لغة للحياة وحياة للغة
(قراءة في المنشأ والتحضر والاكتساب)

أ.د. عبد القادر الربّاعي

قال ابن جني في تعريفه للغة: "هي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم" وجعل ديكارت اختلاف الإنسان عن الحيوان في: "أن له عقلاً، وأن أهم خصائص هذا العقل إنتاج اللغة". اللغة مكون لساني طبيعي نطق بها الإنسان تلقائياً، ثم طورها ونظمها واستخدمها لتعينه في التعبير عن حاجاته المادية وأشواقه الروحية، ولتكون وسيلته للتواصل الإنساني في الحياة. واللغة وعاء تملؤه روح الأمة، واللغة العربية بتاريخها الطويل هي التي امتلأت بها روح الأمة العربية، فحملتها وعبرت بها - وما زالت - عن حضارة هذه الأمة: مبادئها، وقيمها، وأدبها، وعلومها، و شرائعها في شتى الأزمان، واختلاف المواقع. لقد تعهد هذه اللغة رجال مخلصون عكفوا على تدوينها وحفظها في كتب للنحو والصرف والمعاجم وعلوم اللغة الأخرى ما مكنها من الصمود أمام الهزات وهي عنيفة، والوقوف ثابتة شامخة في وجه الاعاصير وهي مدمرة.

واللغة العربية واحدة من اللغات البشرية، لها خصوصية العربي الذي عاش قديماً في بيئة ذات طبيعة خاصة، وكون له فيها حياة فريدة على المستوى الذاتي والاجتماعي والإنساني. كل ذلك استوعبته اللغة العربية فميزته بألفاظها ونمته بأبنيتها التركيبية ونظامها الصرفي، حتى غدا تنامي ألفاظها شبيهاً بتنامي بيوت الشَّعْر: مساكن أهلها العرب القدماء؛ فإذا كانت الأسرة العربية بدأت ببيت واحد فإنها مع تعدد الأبناء وتكاثرهم غدت بيوتاً. وهكذا أبنية اللغة؛ تبدأ بكلمة ثلاثية الأحرف غالباً، ثم تنمو لتصبح بالتصريف كلمات، فبناء.

إن ذلك يؤشر على أن أللغة العربية تملك إمكانات للنمو والتطور اللانهائي بفضل طبيعة البناء التركيبي التوالدي الذي يميزها من غيرها بالاشتقاق والقياس والقلب والإبدال والنحت والإشارة وغيرها من أساليب البناء القابلة للزيادة حسب جهد مستخدميها على مدى الأيام والأزمان مهما تعقدت حياتهم وتشابكت مصالحهم.

لقد عاشت اللغة العربية هذا الواقع في مسيرتها الطويلة الممتدة منذ أن وجدت حتى وقتنا الراهن.

ففي فترة ما قبل الإسلام عبر إنسان ذلك العصر عما احتاج إليه من ألفاظ سواء في مشاهداته على الأرض أو في السماء؛ فالصحراء والإبل والترحال والكلأ والماء والشمس والقمر والأفلاك وغير ذلك من أشياء امتلأ بها المعجم اللغوي العربي.

ولما كان للعرب حياتهم الحضارية في معاشهم الديني والدنيوي، وفي علاقاتهم بغيرهم من الأمم كالفرس والرومان والأحباش وغيرهم؛ فقد أسعفتهم لغتهم الثرية بتلبية مااحتاجوا إليه خدمة لهذه الحياة المتنوعة والمتشابكة، كما أسعفتهم أيضاً للتعبير عن مشاعرهم وأفكارهم بالشعر والخطابة والقصص وما إلى ذلك من أساليب القول والتلبيات سواء الوثنية منها أوالكتابية مثل الديانة النصرانية واليهودية.

وحينما كرم الله تعالى الأمة العربية بأن اختار منها محمداً عليه السلام ليكون رسولاً للبشرية جمعاء كرم بتكريمهم اللغة العربية فأنزل بها قرآنه المجيد حيث قال سبحانه: " إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون " [يوسف آية ٢].كما قال مخاطباً نبيه " ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلِّمُه بشرٌ× لسانُ الذي يُلْحِدون إليه أعْجميٌّ وهذا لسانٌ عربي مبين " [النحل آية ١٠٣]. وإذا أدركنا أن القرآن الكريم هو رسالة رب العباد إلى كل العباد في كل أرض على امتداد الحياة والأزمان، عرفنا كَمْ من الأفكار والحِكَم وأسباب الهداية الراشدة، وطرق الفصل بين الحق والباطل، وبين العدل والظلم وما إلى ذلك، حواها هذا

القرآن المُنَزَّل بلسان عربي مبين.

اللغة العربية إذن بحر زاخر بالألفاظ في مستويي التوافق و التناقض، وعندما انتشر الإسلام في أقطار الأرض ولامست هذه الألفاظ العربية أسماع الشعوب الأخرى، زاد العبء على العربية، وأُدخِلت في تحد كبير، لأنها واجهت عوالم جديدة فرضت عليها أن تتعامل مع عقول مختلفة وأذواق متعددة، لكنها بمواطن القوة في تصريف أبنيتها، وتنامي ألفاظها تمكنت من الصمود أمام ذلك التحدي الكبير. لقد تعلم هذا الوافد الجديد من أبناء الأمم الأخرى، اللغة العربية لأنه كان بحاجة إليها، ذلك أن معرفتها هي السبيل إلى فهم القرآن الكريم وأداء الواجبات الدينية الأخرى. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: " تعلموا العربية فإنها من دينكم ". ولذا أقبل كل من دخل بالإسلام على تعلم العربية، فازدادت بهم غنى وانتشارا، بل إن رغبتهم في تعلمها لغةً صحيحةً سليمةً كما هي في القرآن الكريم دفع سيبويه إلى أن يؤلف كتابه " الكتاب" في نحوها وصرفها، ثم توالت بعده التآليف في ذلك، كما كثرت التآليف في غيره من فنون الأدب والشعر والأخبار زمن التأليف والتدوين والتوثيق.

لقد منح هذا الحراك الإنساني والتفاعل الحضاري اللغة العربية قدراً واسعاً من الحيوية والاتساع دفع المستشرق بروكلمان إلى القول: " بفضل القرآن بلغت العربية من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه أية لغة أخرى من لغات الدنيا. فالمسلمون جميعاً مؤمنون بأن اللغة العربية وحدها اللسان الذي أُهِّلَ لهم أن يستعملوه في صلواتهم، وبهذا اكتسبت العربية من زمان طويل مكانة رفيعة إلى اللغة العربية فاقت جميع لغات الدنيا ".

إن ما في العربية من اتساع ومرونة في الاشتقاق وما لها من حلاوة في الإيقاع دفع بعضاً من أبناء الأمم الأخرى أن يسجلوا إعجابهم بعبقريتها. قال المستشرقق جو بيوم في مقدمة كتابه " تراث الإسلام ": إن اللغة العربية لغة عبقرية لا تدانيها لغة في مرونتها واشتقاقها وخاصة ما يتصل بالفعل والاسم؛ فمثلاً مادة (دار) يشتق منها: أدار، ودور، ودوار، ومدار، ومدير... وهكذا". أما الإعجاب، بما للخط فيها من جمال رسم وبراعة تصوير، فقد دفع بيكاسو الرسام العالمي الشهير إلى القول: " إن أقصى نقطة أردت الوصول إليها في فن التصوير وجدت الخط العربي سبقني إليها منذ أمد بعيد "..

كل ذلك يؤكد أن العربية حوت من أسباب البقاء والجمال ما يؤهلها للمضي في التعبير عن إبداعات الإنسان وابتكاراته العلمية والحضارية ما شاءت له موهبته الفنية واختراعاته الآلية، بل إنها نهضت بهذا وأكثر حينما استوعبت حضارات الأمم الأخرى التي وفدت عليها في ظل الدولة الإسلامية كالحضارة الفارسية واليونانية والهندية وغيرها. ثم إن حركة الترجمة التي بدأتها منذ القرن الأول زمن الأمويين بعناية خالد بن يزيد حفيد معاوية بن أبي سفيان، وازدهرت زمن العباسيين وخاصة في عهد المأمون الذي دأب على مكافأة المترجمين أوزان ترجماتهم ذهباً، فتحت للعربية أفقاً رحباً للنمو والاتساع، حيث انطلق المسلمون الأفذاذ يترجمون ما وقع في أيديهم من الكتب العلمية والأدبية المفيدة لنهضتهم الحضارية، الأمر الذي أضاف على العربية عبئاً ثقيلاً جديداً نهضت به، مقتدرة عليه بفضل نظامها الفريد وطاقتها الفائقة على احتواء الجديد من الأفكار والمنجزات العلمية والتِقَنية في شتى أنواع المجالات كافة.

إن من أهم منجزاتها استيعابَ حاجتها من ألفاظ الحضارات الوافدة وتطويعَها بمرونتها المعهودة ومن ثم تحويلَها إلى نظامها هي لتصبح تلك الألفاظ الأعجميةُ، ألفاظاً عربيةً خالصة. قال الجواليقي في كتابه: " المُعَرَّب والدخيل ": إن اللغويين الأوائل ذكروا أن العرب كثيراً ما يجترئون على تغيير الأسماء الأعجمية إذا استعملوها فيبدِّلون الحروف التي ليست من حروفهم إلى أقربها مخرجاً، وربما أبدلوا ما بَعُدَ مخرجُه ". ومن هنا عرَّب العلماء كثيراً من الألفاظ الأعجمية ذات الأصول اليونانية، والرومية، والآرامية، والفارسية كما في كتاب الجواليقي السابق. وقد ميزوا بين نوعين من هذه الألفاظ هما:

- الدخيلُ الذي بقي محتفظاً بأصله.
- والمعرّبُ الذي خضع لمقاييس العربية في صرفها ونحوها.

ومن منجزاتها أيضا أنها امتصت الفكرَ الوافدَ فتمثلته وصاغته وحولته إلى عالمها هي وخاصة علومَ الطبيعة كالكيمياء والرياضيات والفلك والطب والفيزياء التي عُرِفت في حضارات الأمم الأخرى، ثم درسها المسلمون وفهموها وأضافوا إليها من علمهم ما طبعها بطابعهم الإسلامي حتى أصبح لهم فيها مناهجُ خاصةٌ نقلتها منهم أوروبا التي فتحت أبوابها للإفادة من هذا العلم الإسلامي الغزير. يقول المستشرق فرانشيسكو غابرييلّي: "إن

من أعظم أفضال الحضارة العربية في إسبانيا وانتشارها الثقافي في أوروبا انتقالَ العلم والفلسفة العربيين، أي انتقالَ قسم كبير من علوم العالم القديم وفلسفته كما ورثها المسلمون وطوروها... إن تراثَهم العلميَّ الذي تركوه للغرب أصبحت له أبعاد هائلة" [من كتاب: تراث الإسلام/ القسم الأول، عالم المعرفة ١٩٧٨م] ص١٥٢. كما قال المستشرق جوان فيرنيه: " في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي اكتسبت هذه الحركةُ (حركة الترجمة) قوةً غيرَ عادية؛ إذ أصبح عدد الكتب المترجمة في صقلية وبخاصة في إسبانيا يثير الإعجاب، وتدفق علم الإغريق والرومان على الأديرة الأوروبية من خلال العقول العربية، وأُدمِجت الكشوف التي تَوصَّلَ إليها العرب ضمن رصيد الثقافة الغربية:[تراث الإسلام، القسم الثالث، عالم المعرفة، الكويت،١٩٧٨م، ص٢١٤].

إن هذا التراث العربي الإسلامي الفذ التقت عليه أمم شتى بحيث انتفع فيه اللاحقُ من السابق حتى وصل إلى الغرب فغدا من رصيدَ ثقافته كما ذكر. لقد اخْتَصَر هذا النفع الأممي التراكمي أستاذُنا ناصر الدين الأسد بقوله: " ليس بين مراحل تطور تاريخ الفكر والعلم الإنساني حدود وفواصل، إنما هو تراكم ثقافي حضاري على مر العصور، يعطي منه السابقُ اللاحقَ، ويُبنَى اللاحقُ على السابق. لا شيءَ فيه يبدأ من فراغ، ولا شيءَ فيه ليست له حدود"[جريدة الرأي ٢٠١١/٥/١٠ ص٨].

كانت تلك جوانبَ من المهمة الحضارية التي صدعت لها اللغة العربية في تراثها العريق في القديم، أما في الحاضر فإن الأوروبيين الذين أخذوا العلم والحضارة من المسلمين عادوا يغزون به ديار الإسلام كما فعل نابليون في حملته على مصر ١٧٩٨م. فنابليون لم يركن لتنفيذ حلمه في استعمار الشرق على قوته العسكرية حسب، وإنما جلب معه أنجعَ وسائل الثقافة ونشرها: المطبعةَ التي عرفتها مصر والبلاد العربية لأول مرة. لقد وقف الإنسان العربي مشدوهاً أمام ذلك الحدث الخطير، لكنه - على الرغم من إفشاله أهداف الحملة – لم يستوعب الدرس الثقافي كما يجب أن يستوعب، ذلك لأنه لم يدرك تماماً خطورته على اللغة والثقافة والإنسان. من أجل هذا وبسببه غاب التأثير الحضاري للأمة العربية في العالم المتمدن هذه الأيام. وغدونا في لغتنا نعيش أزمة حضارية وعلمية خاصة بنا نستطيع أن نشارك بها هذا التقدم العلمي المذهل الذي يموج بالفاعلية والإنجاز في أمكنة أخرى من العالم. إننا ندرك – بلا شك – أن هذا الجمود المعرفي والإبداع الحضاري الذي نعيشه ينعكس سلباً على اللغة لأنها لا تجد ما يُحَفِّزُها على الحركة والنمو والاتساع. يقول الدكتور أحمد صيرة من جامعة الاسكندرية: " نحن مقصرون بحق لغتنا وفي العناية بها، فعلى الرغم من أننا نشاهد مظاهر التدهور في كل المجالات... ونرقب زحف العامية واحتلالها مساحات في وسائل الإعلام أكثر مما ينبغي فإننا لا نفعل شيئاً له قيمة من أجل هذا التدهور".

لكن العربية بدأت، منذ بداية القرن العشرين، تواجه تحديات جساماً؛ إذ طلع علينا أصحاب الأقلام المشبوهة بأفكار وآراء غريبة، زاعمين أنهم يريدون للعربية التجديد لمواكبة أسباب النهضة العالمية الحديثة. وتحقيقاً لهذا الزعم بشروا بإحياء اللهجات العامية حيناً، والكتابة بالحروف اللاتينية حيناً. إلا أن متانة العربية وتجاربها القديمة في التفاعل الخلاق مع أسباب الحضارات الوافدة على اختلافا، وتنوعها،وتعاقب أزمنتها من ناحية، وإيمان المخلصين من أهلها بقدرتها الذاتية على حمل مستجدات الحضارة الحديثة بالكفاءة ذاتها التي حملت بها الحضارات القديمة على تشعب علومها ومعارفها وفلسفاتها. " فالعربية هي الوطن الروحي لأبناء الأمة الواحدة، فإذا كانت الأرض التي تجمع أبناء الأمة فوق ترابها تسمى وطناً، فإن اللغة التي جمعت بينهم في اللسان والفكر هي وطن روحي آخر.

وعلى الرغم من أن تلك الدعوات قد أجهضت في مهدها، فإن غيرها ما زال يطلع علينا بين الحين والحين ينطلق باللسان ذاته وإن طرح أفكاره المسمومة مشفوعة بترياق الغيرة على العربية، والخوف عليها من التخلف. ومن هؤلاء واحد رأى أن تقسم العربية إلى ثلاث درجات: الفصحى العالية للأدباء والخطباء، والفصحى المخففة لجمهور المتعلمين، والعامية للأطفال الذين يجب – كما قال – أن يتعلموا لغة عامية كالتي يتكلمونها. وقد يتساءل المرء: كيف يمكن للإنسان أن يصل إلى اللغة العالية إذا لم يتعود على اكتسابها منذ الصغر، مع علمنا أن الأطفال هم الأقدر على تعلم اللغة واكتسابها أكثر من غيرهم. فعقل الطفل صفحة بيضاء يسجل عليها ما يراد له أن يتعلمه.

علينا ونحن نتلقى مثل هذه الدعوات

السلبية أن لا نركن دوماً إلى متانة اللغة وقدرتها في الماضي والحاضر على الصمود لشتى ألوان التحدي – وكانت وما زالت جديرة بذلك حقا؛ لكن هذا يدفعنا من باب الإخلاص لها، والولاء لما تحمله وتحويه من قيم ومثل وحضارة وأدب رفيع، لأن نقف وقفة قاسية مع الذات كي نراجع أنفسنا ونسألها أسئلة صعبة من أجل الحصول على أجوبة صادقة لا موارية فيها حتى لو كانت مؤلمة؟

أ- ما الذي عملناه ونعمله خدمة لهذه اللغة العظيمة كي تحافظ على أدائها المتفوق المعهود؟

ب- هل أضفنا كثيراً على ما قدمه السلف الصالح في خدمتهم للعربية؟

ج- وهل وعينا ما ينتظرنا وينتظر لغتنا من مستقبل قادم مع العولمة التي اجتاحت العالم وسعت لتذويب خصوصيات الشعوب – وشعوب العالم الثالث بخاصة، الذي نحن جزؤه الأساس بخاصة؟ فاللغة –كما نعلم- من أخص خصوصيتنا، فإن لم نبادر إلى خدمتها تنمية، وتعلماً وتعليماً واكتساباً للأجيال القادمة، أصابها خلل وقصور واضطراب لا قدر الله. لقد أشارت إلى خطر العولمة على اللغات القومية كل الندوات واللقاءات التي عقدت لها، كما دعا منظمو هذه الندوات إلى ضرورة تعزيز آليات حماية الخصوصية الثقافية من خلال الاعتناء باللغة وتحديث وسائل تدريسها والمضامين المختارة لذلك.

د– ثم ماذا عملنا لمواجهة عصر المعلومات وشبكة الإنترنت ووسائط التواصل الاجتماعي الثري؟ فتسارع الاستعمال اللغوي واختلاط أشكاله ولغاته ولهجاته أكبر تحد يواجه لغتنا الفصيحة. لقد قيل: "ومع بزوغ عصر المعلومات تعاظم الدور الذي تلعبه القوى الرمزية وعلى رأسها اللغة في صياغة شكل المجتمع الإنساني الحديث، وباتت اللغة في أمس الحاجة إلى منظور جديد، منظور يعيد النظر في جوانب المنظومة اللغوية من أعمق الجذور إلى أدق الفروع". أظن أننا نتداول مثل هذا القول أو ما يقاربه ويدانيه، لكننا لم نتجاوز فيه القول إلى بعض العمل سواء في مجامع اللغة، أم في الجامعات،أم في المؤسسات العلمية والبحثية، وتركنا هذا لشركات تجارية تترجم وتخترق اللغة كما يحلو لها ؛ فهمها الربح ولا شيء غيره. ومن هو في موقعها النفعي لا يعنيه الحرص على الضبط اللغوي، أو تواصل نسيجه الاشتقاقي بما يؤسس للحفاظ على نسق اللغة في رد مستجدها إلى جذره، أو المقطع الفرعي المستحدث إلى سياقه الأصلي الأصيل، وهكذا.

من الواجب أن لا نصم آذاننا تجاه الدعوات العلمية العملية الصائبة، وأن لا نكتفي بما وصل إلينا من جهد الأجداد الذين أصلوا القوانين اللغوية، ووضعوا القواعد منذ القدم، وفق تصورهم الخاص للشاهد النحوي خدمة مخلصة – يقيناً- لحاجاتهم العملية والعامة في ذلك الزمان، فهل من الحكمة والمنطق التاريخي أن نظل في لغتنا العربية اليوم مرتهنين بذاك الجهد المحمود، أو أن نجعله قدوتنا لعمل يكافئه وجهد يوازيه فنستحضر كل الذي طرأ على اللغة من تطور ونمو،وما عهدته من تنوع علمي واختلاط ثقافي حضاري متجدد ووافد من الشرق والغرب؟! يقول أحد المشتغلين في دراسة اللغة العربية وتدريسها ممن لا يشك في نواياه: " إحدى المشكلات التي تعاني منها دراسة العربية هي النظرة السائدة لدى العرب في اعتبارها ذات مستوى واحد في كل فتراتها التاريخية منذ أقدم نص موجود بها إلى أحدث ما يستخدم فيها من نصوص العربية الحديثة التي يجب أن تصاغ بناء على القواعد التي وضعها النحاة في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي).

فهو، فضلاً عن أنه يحدد المشكلة التي عاقت وما زالت تعوق تجديد قواعد اللغة – قد سلط الضوء على الأساليب التي اتبعت قديماً لاستنباط قواعد اللغة ويرى أنهابحاجة إلى أن تتطور آخذة بالحسبان العوامل الموضوعية المستجدة، والأساليب العلمية المبتكرة في العصر الحديث والإمكانات المتاحة لتنقية اللغة مما شابها من اختلال في الزمن البعيد الممتد بيننا وبين نشأة قواعدها وقوانينها. وإذا كان الباحث اكتفى بالإشارة العامة إلى الأسباب التي أعاقت تطور العربية، فإن باحثاً آخر كان أكثر تحديداً لهذه الأسباب من خلال ملاحظاته على أسلوب النحاة القدامى في اختيار الشواهد واستقراء المادة اللغوية، والاهتمام بالشكل أكثر من المضمون، واقتصارهم على اللغة المكتوبة، وغير ذلك من الأعراف التي اتبعت في تقديس المنهج القديم وعدم الخروج على النهج الذي سار من قبله دون إضافة تغير من القائم شيئاً يذكر ويؤخذبه.

إن هذا الإحساس وأمثاله لدى بعض الباحثين الجادين المخلصين للعربية الشريفة، وتراثها العريق يدفع الغيورين

عليها أن يدأبوا في الحاضر دأب من أخلص لها في الماضي، وأن يجتهدوا اجتهادهم في استقراء الجديد بما يمكن أن يكون قد وقع في الاستقراء القديم من نواقص. فقد ينتهي الاستقراء الجديد إلى الإبقاء على قواعد أساسية ربما يدخل تبديلها أو تغييرها خللا في بنية النظام اللغوي المطرد في العربية، لكنه – في الوقت ذاته – قد يستغني عن قواعد ثانوية طواها الزمن ولم يعد لها ضرورة في النظام اللغوي الجديد. وفي كل الأحوال لا بد أن ينظر للعربية على أنها كيان حي يتطور باستخدامات لغوية جديدة عبر الأزمان والعصور، ولعل هذا يقتضي إضافة قواعد جديدة أفرزها تطور العربية واستقر في نصوصها الحية المعتمدة. قال أخد الباحثين: لا بد أن يستمر البحث ما استمرت العربية في الوجود، وان لا يغلق باب الاجتهاد فيها حتى تظل أنماطها ونماذجها ونظمها حية... متجددة دائماً... ذلك أن العربية... تتطور مع الزمن ويتغير بعض مظاهرها باختلاف البيئات والشعوب".

وإن اردنا تكلف مقترح لإصلاح أسلوب تدريس العربية، فإنه من الصعب وضع تصور عام للإصلاح في كل المراحل الدراسية؛ ذلك أن هذا عبء ينوء بحمله مجرد فرد أو أفراد، لكنني – من خلال عملي أستاذا جامعياً ممارساً لتعليم العربية في جامعة اليرموك وعدد من الجامعات العربية والأردنية الأخرى ما يقرب من أربعين عاما – يمكنني اقتراح تصور لهذا الإصلاح المنشود مستفيداً من تقبل الطلبة الذين كنت أدرسهم هذا التصور عمليا حين كنت أطبقه معهم منهجاً تدريسياً يومياً، كما أفدت من أفكار بعض العلماء والاساتذة الذين التقت أفكارهم مع هذا التصور ومارسوه بالتجربة الحية في مسيرتهم التعليمية. ولعلي أذكر من هؤلاء الدكتور محمد حسن عبد العزيز/ عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة حيث قال في بحث قيم حول تدريس العربية لغير الناطقين بها: " إن المهارات الاساسية عند تدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها هي كما يلي:

١- النطق Pronunciation
٢- القراءة Reading
٣- الكتابة Writing
٤- الفهم Understanding
أ- الشفوي Oral
ب- الكتابي Writing
٥- الإنشاء Composition

ويؤكد أن هذه المجالات يجب أن يظل اتصال بعضها ببعض وثيقاً – وهذا هو المهم – حتى لو اخترنا عناوين أخرى أو فرعنا كل مجال إلى أجزاء ثانوية".

قد تكون هذه المهارات مألوفة لنا في تدريس العربية، لكن غير المألوف أننا ندرسها متصلة ومترابطة بعضها ببعض. لقد ألفنا أن ندرس النحو بعيداً عن تدريس الصرف، وأن ندرس الصرف بعيداً عن النحو والفهم وكذلك البلاغة والعروض، بل إن لكل مهارة مدرس مختلف عن مدرس المهارة الأخرى؛ أي أننا – بمعنى آخر – لا نعتمد تدريس العربية من خلال نصوصها الحية وإنما من خلال تلقين قواعدها الأصولية وحفظها واستذكارها. ونتج عن هذا حفظ الطالب للقاعدة وعدم قدرته على استخدامها استخداماً نصياً صحيحاً لا في الإنشاء الكتابي ولا في الشفوي. وسار اكتساب اللغة العربية على هذا الخلل المتبع حتى الآن في جل جامعاتنا إن لم يكن فيها كلها. وليس غريباً أن ترى أكثرالطلبة المختصين في العربية يستذكرون في أثناء قراءاتهم أو مناقشاتهم ضبط لغتهم نحوياً خوف الخطأ أكثر مما يركزون على صواب فكرتهم، وهذه حال تحدث ارتباكاً بل اقصوراً في التعبير عما يبتغون.

إننا نسعى لأن يكون اكتساب اللغة سليقة حتى تكون الأفكار سلسة النطق والتعبير، ويكون الفهم سهل الإدراك والتلقي.

إن طلبتنا بحاجة أن يتعلموا كيف يقرؤون قراءة مبينة، وبفهمون فهماً واعياً، ويكتبون كتابة صحيحة دونما لجلجة أوإعاقة اضطراب، وهم لذلك، بحاجة إلى منهج قويم يسير بهم إلى اكتساب هذه المهارات الاساسة الثلاث بكفاءة ويسر.

أعتقد أن النموذج الاصلح لهذا الامر اعترافنا بالعجز حتى الآن عن إصلاح الخلل الناشئ من تطبيقنا العملي للمنهج التقليدي في التدريس الذي لم ينجح في إثارة رغبة إيجابية لدى الطلبة في إقبالهم على دراسة اللغة العربية. ومثل هذه الرغبة شرط لازم للإفادة المطلوبة في دراسة أية مادة من مواد العلم وعلى راسها – بالطبع – اللغة العربية. قد يكون من المرغوب فيه أن يستند أي نموذج تدريسي مقترح على أسس ثلاثة:

أولها: أن يكون عصرياً يأخذ بأسباب تطور اللغة وتجددها بالاستخدام عبر العصور، والعصر الحديث منها بخاصة، فلا يجوز أن نبقى في اللغة عند نصوص معينة زماناً ومكاناً.

ثانيها: أن يكون شمولياً يتجاوز القاعدة إلى النصن ويتوحد فيه المبنى والمعنى

بتناغم كبير.

ثالثها: أن يفيد من الوسائل الحديثة في الاتصال اللغوي والتواصل الاجتماعي: بأدواته، وآلياته بهدف الاطمئنان في كل ذلك على سلامة النطق وسلاسة التعبير.

وبناء عليه يمكن اقتراح نموذج تدريسي صالح وقابل للتطبيق في المستوى العام لتدريس العربية وتمكينها في نفوس الدارسين. يتألف المقترح من الأركان الثلاثة الآتية:

١- المادة اللغوية المختارة.

٢- المنهج المعتمد للتدرس.

٣- التطبيق العملي: مفرداته، وأدواته، وآلياته.

إننا الآن أمام اختبار حقيقي للنهوض بلغتنا العربية من أجل استيعاب مستجدات الحضارة العصرية المتنامية في هذا العالم الذي تتغير سماته وتتجدد يوما بعد يوم. فليس هناك عذر لمعتذر

لأننا نملك الأرضية اللغوية الخصبة القادرة فعلاً على ترجمة الأفكارمهما كانت عميقة، واحتواء المشاريع مهما كانت طموحة ؛ فاللغة العربية التي هي أساس تكويننا الروحي والعملي تمتلك إمكانات هائلة للتطور إذا ما أحسنا استغلال قدراتها الذاتية وهي كثيرة، كما أننا نملك تجربة تراثية حضارية ثرية وعريقة نحن على دراية تامة بها. لقد استوقفني في هذا السياق قول للدكتور عبد الرحمن التويجري عندما كان مديراً للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، قال: " اللغة عنصر فاعل في الحضارة، وعامل مؤثر في النهضة، فكلما قامت حضارة ونما فرعها ازدهرت اللغة واغتنت وامتد إشعاعها وانتشرت... لذلك كان الاهتمام بمعالجة مشكلات اللغة والخروج من دائرة التراجع جزءاً لا يتجزأ من الاهتمام بقضايا البناء الحضاري للعالم"

إن من ينسب العجز عن مواكبة التقدم العلمي والحضاري إلى اللغة العربية واهم ومخطئ، لأن هذه اللغة امتحنت قديماً ونجحت حين أراد لها أهلها المخلصون النجاح. علينا أن نعترف بأن ما نحن فيه من جمود إنما مرده إلى العجز فينا نحن أفراداً ومؤسسات وجامعات ومجامعَ علميةً ومنتديات أدبيةً، فطريقُ النهوض بالعربية واضحٌ لكل ذي بصيرة وقد يلخص بثلاث طرق:

أولاها: الثقة بنا أمةً عزيزةً عريقةً، و الإيمان بما نملك من قدرات إنسانية ولغوية وحضارية، ثم الرؤية الثاقبة في خطورة ما نحن فيه من تراجع في الوقت الراهن، والوعي المخلص بما يمليه علينا المستقبل الواعد من إرادة حازمة في التغيير إلى الأكمل. ومن الضروري هنا أن ننتقل بالتدريج إلى استخدام اللغة العربية في كل مراحل التعليم من الروضة إلى الدراسات العليا، ولا يمنع هذا أن نتعلم وأن نعلم اللغات الأخرى لتكون رديفة للغة العربية ومفيدة لها.

وثانيتها: إنجاز مشروع عربي جماعي متكامل للترجمة يعمل بطاقات هائلة وبمعرفة شاملة ومتنوعة، يضع خطة مدروسة بإحكام والتزام لإنتاج ترجمات محسوبة النفع والفائدة في شتى مجالات العلم والمعرفة، ويهيء لها ما تتطلبه من وسائل الطباعة المتقنة والانتشار الواسع. ويمكن الإفادة في هذا الصدد من تجارب الأمم الناجحة في هذا الشأن الحيوي الهام.

وثالثتها: التأليف الفردي والجماعي والمؤسسي المشترك فيما ينهض بالعلم والحضارة والتقدم والرقي، وكذلك تشجيع المؤسسات والأفراد بما يدفع هذا الجانب قدماً كالحوافز والجوائز والمنح والمساعدات والبعثات العلمية وتبادل الخبرات مع الدول والمؤسسات العالمية.

اطلعت مؤخرا على ما تقدمه مؤسسة (El-Ibtekar) من أساليب تدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها، وأظننا جديرون بمعرفة ما يجتهدون في هذا الشأن للإفادة منه وخاصة في المراحل التأسيسية المبكرة لتعليم العربية من المبتدئين. وهذه المرحلة – برأيي – من أخطر المراحل التعليمية على الإطلاق. وهي التي يبنى عليها ما بعدها من أساليب تعليمية متدرجة. لقدتوقفت عند ما سمي بالطريقة المباشرة في التعليم: فهي الطريقة التي أراها نموذجية في تعليم اللغة العربية لترقية قدرة الدارس في مهارة الكلام عن طريق المقابلة المباشرة والتبادل المباشر بين التلميذ ومدرسه، وذلك بأن تجعل اللغة الفصيحة لغة أساسية أثناء الدراسة والحوار. إنها الطريقة التي يتمكن المدرس والدارسون فيها معاً من جعل اللغة الفصيحة أساسية للحوار التعليمي المباشر. ولهذا علينا، من أجل تمكين اكتساب اللغة للطفل، إعداد معلمين أكفياء وبمهارات عالية: علمياً ونفسياً وعملياً لهذه الغاية. فتعليم العربية شأنه شأن تعليم مواد أخرى يتوقف على

عدة عوامل نفسية وتربوية واجتماعية وثقافية. ولعل صعوبة العربية ليست عائدة إلى صعوبة ألفاظها ومو ادها، بقدر ما قد تكون عائدة إلى ضعف دوافع المتعلمين إلى دراستها وتدريسها. يمكننا أن ننعم النظر في أساليب التدريس التي استخدمت قديماً وما زالت تستخدم في تدريس العربية، لنجد أنها جرت وتجري مجرى العادة والتقليد على حفظ الطلاب المعلومات المعدة سلفاً بطعم الحقائق الجاهزة. فأساليب التدريس من هذا النوع لا معنى لها عند الطلبة، لأنها ليست من عالمهم، ولا من ذائقتهم. فمثل هذا الجو التعليمي ما زال مركزاً بالمنهج المقرر، وبالمدرس الغريب المعين كيفما اتفق عليه من صاحب القرار. أما الطلبة في مثل هذه الحال، فليسوا سوى مخزن يعد لتعبئة أي شيء يرام له.

لكن الطرق الجديدة مختلفة نوعاً وأسلوباً وهو ما أطلق عليه: المدخل السياقي في تعلم وتعليم اللغة العربية. لقد باتت وسائل التعلم وتقنيات التعليم عصرية وديناميكية، ومن أهمها توافر الوسائل التقنية الإعلامية التي اتخذت العربية فيها مكاناً للتداول مثل الشبكة العنكبوتية، والقنوات الفضائية، ووسائل التواصل الاجتماعي، للناطقين بالعربية وبغيرها. إنها تقدم لهم ما يتمتعون به من برامج لغوية وثقافية بحيث تتضاعف فرصهم في سماع الفصحى. فالشبكة العنكبوتية بإمكاناتها ووسائطها من أهم الوسائل التي تنتفع بها العربية وخاصة في تقديم دينامية هذا العصر وما يحمله من تطورات حديثة متصاعدة كل يوم.

نعلم جميعاً أن العولمة أدت إلى ما ما أطلق عليه: " أزمة هوية اللغة" بمعنى أن أبناء هذا العصر لم يعودوا يعيشون دوماً اللغة التي تنتمي إليها ثقافتهم، وإنما إلى اللغة المهيمنة على التواصل الدولي، فكما أثرت هذه الحال على الهوية الثقافية، أثرت على الهوية اللغوية. لذا تحتاج العملية التعليمية هذه الأيام لتحفيزالدارسين بشأن الإقبال على اللغة العربية،وذلك عن طريق إيقاظ شعلة الرغبة لديهم.وقد اقترح ماما ن روسمان من مؤسسة الابتكار (EL-Ibtikar) إلى الدافعية الانتمائية لدى الدارسين؛ فالدافعية Motivation عنده قوة نفسية تلعب دوراً بالغ الأهمية أثناء عملية التعليم والتعلم لدرجة أن أي طالب لن يتقن تعلم العربية ما لم تكن لديه طاقة عقلية وجسمية من أجل ذاك الإتقان. ولقدتوافر للعربية مجموعةمنالدوافع يمكن للمدرس استعمالها في التعليم:

أول الدوافع: الدافعية الدينية؛

فالعربية جديرة بأن تعلم لما لها من مكانة دينية فريدة تتميز بها. إنها لغة كتاب المسلمين الخالد وهو القرآن الكريم. لقد أنشأ هذا علاقة وجود بين العربية والإسلام، وهي علاقة لا سبيل إلى فصمها مطلقاً، لذا أصبح تعلمها واجباً عل كل مسلم، فما بالك بالعربي المسلم!!.

أما الدافع الثاني فالموقع الاستراتيجي للعربية

كونها تحمل للإنسانية تراثاً ثقافياً وإنسانياً عظيماً، فمن الثابت أنها قد حملت في القرون الوسطى أمانة نقل علوم اليونان وفلسفتها إلى العالم قاطبة، وفي أكثر فتراته ظلاماً.

أما الدافع الثالث فموقعها العالمي؛

فاللغة العربية تتمتع بموقعها العالمي من خلال استراتيجيتها الثقافية السابقة التي جعلت منها سادس لغة من اللغات المعترف بها حسب منظمة الأمم المتحدة إلى جانب اليونانية، واللاتينية، والإنجليزية، والفرنسية، والإسبانية، والروسية. لا لكونها إحدى أكثر اللغات انتشاراًفي العالم فقط، وإنما إلى المكانة التي تشغلها في التاريخ الإنساني قاطبة.

ومن الحوافز الأخرى لجذب انتباه الدارسين وسائل التعليم الحديثة المختارة بعناية. إن إتقان تعلم العربية بمهاراتها المتعددة يتطلب إلى جانب توافر الوسائل التعليمية إتقان المعلم لمعرفة الكيفية التي يتم فيها اختيار الوسيلة التعليمية المناسبة للمرحلة التعليمية لطلابه واستخدامهااستخداماً يشد اهتمامهم، ويكفل لهم معرفة جديدة تضع بصمة في ذاكرتهم.ومن هذه الوسائل الصور، والرسم، والألعاب مثلاً. فهي وسائل بسيطة يمكن للطلبة أنفسهم أن يخترعوا بعضها من أشيائهم أو بيآتهم. إن لهذه الوس ائل وغيرها القدرة على بث روح المشاركة في البحث عن المعلومة للوصول إلى المعرفة اللغوية المطلوبة.

وتكمن أهمية الوسيلة التعليمية المناسبة في كونها تخاطب الحواس الإنسانية؛ فالحواس هي المنافذ الطبيعية للتعلم، ولذلك دعا المشتغلون في مجال التعليم إلى استخدام الوسائل التوضيحية لأنها توقظ الحواس؛ كونها الطريقة الفضلى التي تستخدم في هذا الشأن

استخداماً تجريبياً.

هناك إدراك للصعوبات التي يتطلبها إنجاز هذا المشروع الطموح ولكننا نحتاج إلى وضع إشارات على طريق التغيير في التفكير والعمل، لبناء الذات العربية الجديدة الفاعلة شأن الأمم التي نهضت ونجحت كطائر الفينيق الناهض من تحت الرماد. والأمثلة في هذا الشان ماثلة للعيان.

وأخيراً نأمل أن يكون الحِراك الاجتماعي في الأمة العربية حافزاً إلى السير في نهضة لغوية حضارية أكثر انفتاحاً، وأعظم مسؤولية في تعزيز هذه المهمة الجليلة بعون من الله وتوفيقه.

المراجع:

- القرآن الكريم.

١- الابتكار http;//www. EL-Ibtikar.co Poral Garuda

٢- بروكلمان، كارل: تاريخ الأدب العربي،ترجمة عبد الحليم النجار، ١٩٥٩م، دار المعارف بمص، القاهرة.

٣- ابن جني، أبوالفتح عثمان بن جني الموصلي(٣٩٢هـ): كتاب الخصائص (ثلاثة أجزاء) ،تشر الهيئة المصريةالعامة للكتاب، القاهرة، ط ٤.

٤- الجواليقي، أبومنصور موهوب بن أحمد بن محمد (٥٤٠هـ): المعرب من الفكر الأجنبي على حرف المعجم، ١٩٩٠م، دارالقلم، لبنان.

٥- الخطيب، محمد إبراهيم: ٢٠٠٣م طرائق التعليم للغة العربية، الرياض، ط١ ،مكتبة التوبة.

٦- السيد،محمدعلي: ١٩٩١م التقنيات التربوية في تدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها، إيسيسكو، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم.

٧- شاخت، جوزيف، وبوزورث: تراث الإسلام،ترجمة محمد زهير السمهوري،وحسين مؤنس،وإحسان صدقي العمد،تعليق ونحقيق شكر مصطفى، ١٩٧٨م، عالم المعرفة، الكويت.

٨- صيني، محمود إسماعيل، وعمر الصديق عبد الله: ١٩٨٤م المعينات البصرية في تعليم العربية، مطابع جامعة الملك سعود، الرياض.

١٠- كمال يوسف الحاج: ديكارت أبو الفلسفة الحديثة، ١٩٥٤م دار مكتبة الحياة، بيروت،

١١- مدكور،علي أحمد: ١٩٩١م، تدريس فنون اللغة العربية،القاهرة، دار الشريف.

١٢- موسوعة ويكبيديا Wikipedia الحرة.